من تلاميذ المدرسة ذكورا واناثا ان يعود اليها مثلها ولكن: ماكل مايتمنى المرء يدركه ، وان ارادة الله فوق كل ارادة وقدرته تعالى نافذة وليس لنا الا الرضاء والتسليم لحكمه وقضائه .

وقد قال كثير من الناس بعد وفاة المرحوم : ان المدرسة تموت قريبا فانه ليس فيها معلمون أكفاء ، والسبب الاول في موتها عدم الاموال التي تحيا بها والمعلمون بغلاء ضعفاء في الاحوال المالية .

هذا واني ذكرت ماذكرت من الاطراء والثناء على شقيقي رحمه الله وهو حق ان شاء الله تعالى ، ولا فائدة لي وله في ذلك ما لم يستحقه . وشهد له بذلك جميع من عرفه من أهل العلم والفضل الذين يقدرون الفضيلة حق قدرها كما تشهد له به آثاره التي لا موضع لذكرها هنا .

سميس برنيو الغربية تحريرا في ٩ شوال سنة ١٣٣٩ الموافق ١٦ يونيو ١٩٢١

كتبه

محمد بسيوني عمران

تقريظ المطبوعات [1]

(كتاب تنوير البصائر ، بسيرة الشيخ طاهر)

صفحات هذا الكتاب ١٥٩ بقطع رسالة التوحيد ومواضيعه ٥٣ وقد طبع بدمشق الشام بمطبعة الحكومة العربية السورية (السابقة) سنة ١٣٣٩ على ورق جيد . ويطلب من مؤلفه الشيخ محمد سعيد الباني بدمشق الشام

(نبذ من مواضيع الكتاب)

المقدمة من المؤلفين والكتاب من يفترض لما يريد اذاعته فرصة سانحة فيبدي فيها بعض ما يريد نشره ومؤلف هذا الكتاب الشيخ محمد سعيد منهم لانك اذا قرأت الكتاب وأردت أن تأخذ منه سيرة الفقيد مجردة — كما يجب المؤلف — لا تكاد تثبت منه الربع وأما الثلاثة الارباع الباقية فهي مواضيع

(١) كتب تقريظ هذا الكتاب وترجمة الشيخ طاهر شقيقنا السيد صالح مخلص رضا

وآراء في الاصلاح والتراجم والنقد ، فهذه المقدمة وهي من ص ٥ ـ ١٤ ليس فيها شيء من سيرة المترجم له بل هي مقالة في الدين ولزومه والبدع والمبتدعة الخ

أعماله وآثاره . ذكر في هذا الموضوع ما كان من أعمال الفقيد من الاجتهاد في اصلاح الكتاتيب والمدارس الرشدية وبعض مؤلفاته وما عدا ذلك فهو في انتقاد العلم وكتبه الخ

استثارته دفائن اللغة العربية . هذا الموضوع في أربع صفحات لم يكن فيها شيء عن الفقيد يزيد على نصف صفحة على انه لم يذكر فيه شيئاً من تلك الدفائن ولا ما استثاره منها وبثه من مرقده ، فهل كان كتاب المخصص من جملة ما أحياه ؟

عنايته باحياء التاريخ . هذه النبذة استغرقت من الكتاب ما يقرب من أربع صفحات لم يكن فيها شيء عن الفقيد سوى ما ملخصه « عني الفقيد باحياء التاريخ وارشاد المسترشدين وغيرهم الى مزاولته ودراساته والمام النظر به وبفلسفته والدلالة على كتبه المفيدة والسعي وراء نشرها وطبعها » وما عدا ذلك فكلام في علم التاريخ وفوائده ولم يذكر ما أحياه من التاريخ ولا ما نشره منه

سعيه وراء التوفيق بين الدين والعلم والعمران . هذا الموضوع استغرق ما يزيد على ١٦ صفحة ليس فيها عن الفقيد سوى ما يقل عن صفحتين نسب فيه للفقيد ما لم يعرف عنه وما لم يدعه هو لنفسه (انظر ص ٤٩) والا فليقل لنا المؤلف أين مناظرات الفقيد أو كتاباته في الاجتماع والعمران ومحاجته المحافظين على القديم ؟ وارشاد الطالبين وتعليم الجاهلين

وكيف كان داعية اصلاح والمؤلف نفسه يقول ما ملخصه « ولما رأى جذب الزمان من حكماء الاخلاق وساسة الارشاد ، وان معالم الاخلاق طمست ودراستها قد درست ، وان وظيفته وهي الدعاية الى الاصلاح العام (؟) لم تمكنه من التفرغ لارشاد السالكين وعظة الغافلين وتربية الاحداث الخ » انظر ص ٢٩

دعوته الى الاخلاق والتربية . هذا الموضوع أخذ ١١ صفحة كان في الفقيد منها ٣ صفحات نسب فيها للمؤلف ما ليس فيه وذكر صحبته وحبه للمستثمرين وحبهم اياه والمزاورة بينه وبينهم وسرد أسمائهم

فأنت ترى ان الكتاب عبارة عن مجموعة مقالات جمل في كل واحدة منها كلمات في المترجم له رحمه الله تعالى وهذه براعة من المؤلف أشكره على التفطن لها

ولكنني آخذ عليه — عملا بقوله قبيل الخاتمة ص ١٤٢ « ومن وجد غلطا في بعض ما عزوته للفقيد ..... فليتفضل علي بتصحيح غلطي » الخ وبعد الاطلاع على « المدخل » و « المقدمة » — ما يأتي فأقول : —

أولا — ان الكتاب بمجموعه لا يصدق عليه اسمه ويصعب جدا أخذ تاريخ حياة الشيخ طاهر منه ، وأن أخذ ما أورده المؤلف من هذه الترجمة لتشتتها بين أطوائه وفي ثناياه على انها لا تكون صورة صحيحة للفقيد

ثانيا — نسب المؤلف للشيخ تلاميذ ومريدين ولم يدلنا على أحد منهم والظاهر لنا انه رحمه الله لم يكن ذا قدرة على التعليم فاننا نعلم انه أقام شهورا عدة نزيلا عند بعض السوريين في السويس وأراد أن يعلم أحد أولادهم النحو وقد رأينا وعاشرنا هذا التلميذ وهو لا يعرف الفاعل من المفعول . فأين هم تلاميذ الشيخ طاهر رحمه الله وأين أمكنة دراسته وتدريسه ؟

ثالثا — لم يذكر المؤلف ما كان له من الآثار في الآثار (العاديات) غير انه « تعلم كثيرا من الخطوط الكوفي والمشجر والمبراني وغيرهم (!) ليتسنى له دراسة الآثار الدارسة ونبشها من عالم الدثور الى عالم الظهور »

رابعا — لم يذكر ما كان من عمل الفقيد في التوفيق بين العلم والدين الخ غير انه كان من علماء كذا وكذا وما لم يدع الشيخ طاهر لنفسه شيئا منه في حياته وانه تبادل الآراء مع المستشرقين وانه كان بينه وبينهم صداقة الخ انظر ص ٤٩ و ٥٠

وكذلك قل عن بقية المباحث . ولو أردنا تتبع الكتاب من أوله الى آخره مازدنا القراء فائدة ولا المؤلف بصيرة وفيما أوردناه كفاية

واليك ترجمة الشيخ طاهر رحمه الله مختصرة مفيدة صحيحة كما وصفها أحد أفاضل علماء الشام ممن له معرفة تامة بالفقيد بعد ان قرأتها عليه اذ قال لي : انها صورة حقيقية مختصرة للشيخ طاهر فأقول : —

الشيخ طاهر الجزائري الدمشقي

حياته ومولده ونشأته العلمية

هو الشيخ طاهر بن الشيخ محمد صالح أحد مهاجرة الجزائريين ومفتي المالكية بدمشق الشام ، ولد في دمشق سنة ١٢٦٨ ونشأ في حجر والده وتلقى مبادئ العلم عنه في بيته ، ثم اتصل بالشيخ عبد الغني الميداني فحضر عليه علوم العربية

والفقه الخ وهو استاذه الوحيد . وكان له شغف بالمطالعة والمراجعة حتى صار له معارف حسنة في جميع العلوم العربية وعني بقراءة الخطوط العربية وخاصة الكوفي منها وتلقى شيئا من اصطلاحات الهندسة والفلسفة عن بعض ضباط الجند العثماني حتى لم يعد غريبا عن الهندسة النظرية ، وكان ذا حافظة جيدة وذاكرة حسنة لا يغيب عن ذهنه ما قرأه في بعض الكتب من نكتة غريبة أو نادرة ومع هذا لم يكن يعتمد على ذاكرته بل كان يضع في كل موضع فيه مسألة يجب الرجوع اليها من الكتب علامة من قطع الورق حتى انه اذا قرأ كتابا ترى تلك الورق بارزة منه ، وكثيرا ما كان يكتب رقم الصفحة واسم الكتاب على قطع من ورق تكون في جيبه الذي هو سفطه (حفظته) وجرابه وكان حريصا على تلك النكت حتى انه كان يستطرد لوضعها في مؤلفاته ولو في غير موضعها وتوفي في دمشق يوم ١٤ من ربيع الآخر سنة ١٣٣٨ ودفن فيها رحمه الله تعالى.

هيأته وزيه وعيشته وأخلاقه

كان رحمه الله قمحي اللون واسع العينين غائرهما نحيف الجسم أبيض اللحية رث البزة غير ممتن بنظافة ثيابه وكان لباسه ما تسميه أعراب الشام شبر ويسمى في مصر قفطانا وفي الشام قنباز أو غنباز فوقه جبة أو جبتان ويتعمم بعمامة من الاطباني وكان كثيرا ما يلبس الثوب مرة واحدة فلا يخلعه حتى يبلى ولا يدع الشمسية (المظلة) صيفا ولا شتاء ويضعها على عينيه مناظر لتقريب البعيد فاذا اراد القراءة في كتاب رفعها ، وكانت له جيوب في جبته كالحرج

وكان حديد المزاج ضيق العطن ضعيف المنة تغلب عليه الوحشة ولعله كان يحس من نفسه بذلك اذ كان يحاول أن يستر الاستياء بمزاح مع جلسائه ومباسطة. وكان كثير الحديث عن علماء دمشق وأعيانها والاسهاب فيما كان عليه معاصروه فيها من الحب والخل والدهان وما كان يدسه هو من الدسائس ليخلص أو يخلص شخصا أو ليروج مشروعا خيريا من شرهم ، ولولا انه كان يجاهر بذلك في أكثر مجالسه ويفخر به ويعبر عنه بالدسائس الطاهرية لما استحسنا ذكره وقد علمنا علم اليقين ان من دسائسه ما كان للايقاع لا للانقاذ

وكانت عيشته عيشة الزهاد مع الحرص على الوقت وكان يقضي عامة ليله في المطالعة على ضوء مصباح من البترول ثم رأى ان ينتفع بنوره وحرارته معا فكان يأتي بقدر صغيرة فيضع فيها شيئا يسد طبخه بحكم وضعها فوق المصباح

معلقة ويقدر لنضجه ساعات يتعاهده عند انتهائها ، وكان أحيانا يطبخ القهوة في القدر ويشرب منها عدة أيام وربما تعفن وجهها من طول المكث

وكان لا ينام في الليل بل يأتي بينه بعد العشاء ويطالع في الكتب أو يكتب عامة ليله وينام بعد صلاة الصبح الى العصر وكان ولوعا بالدخان والشاي والقهوة جميعا مفرطا في كل منها ولم يكن حريصا على المال

كان خلقه التعفف والكرم مع الحاجة لا يميل الى الطمع ولا الدناءة وقد اشتدت به الحاجة في آخر أيامه في مصر فباع معظم كتبه من احمد باشا تيمور وكانت نفقته من ثمنها ، وكان يتصدق في كل يوم بملاليم (أعشار القرش) يمدها لذلك ، وقلما يصدر من مجلسه وارد بفائدة علمية لانه لم يكن يذكر بين الناس شيئا من وسائل العلم لا مفيدا ولا مناظرا ولا مذكرا ولا سائلا ولا مجيبا واذا سأله مستفيد عن شيء أحاله على المراجعة وربما دله على المكان ان كان يرى انه يستحق ذلك ، وكان يرمي الى مقاصده من طرف خفي بدهاء

وربما أومأ الى بعض جلسائه ليتوسط بالامر يريده وكان اذا استرسل بالمباسطة فرط فيكثر من الحركات ويضرب بالضحك حتى يخرج عن وقار الشيوخ

وكان متصلبا في رأيه لا يرجع عنه ولو الى الصواب ، حكى لي شيخ عالم فاضل أطال عشرة الشيخ طاهر انهم اختلفوا في كلمة لغوية فكان الشيخ طاهر على رأي تبين بعد المراجعة انه كان مخطئا فيه ولم يرجع الى الصواب

مؤلفاته

ارشاد الالباء ، مدخل الطلاب الى فن الحساب ، قصص الانبياء ، الفوائد الجسام في معرفة خواص الاجسام ، مد الراحة الى علم المساحة ، الجواهر الكلامية في العقيدة الاسلامية ، الجوهرة الوسطى ، رسالة في العروض ، وقد أراد ان يجعل هذه الكتب مدرسية وكلها طبعت في سورية ومنها ما أعيد طبعه مرات وله مؤلفات أخرى وهي كتاب التبيان لبعض المباحث المتعلقة بالقرآن على طريقة الاتقان ، طبعه بمطبعة المنار ووقفت على طبعه وعنيت بتصحيحه بأذنه ، وكتاب توجيه النظر في الاصول طبعه لها الخانجي بمصر وكتاب التقريب الى اصول التقريب ، طبع بمطبعة النهضة بمصر وشرح خطب ابن نباتة وامية الالمعي ، وكتاب في التعليم الابتدائي وتفسير القرآن الحكيم ، ولعل هذه الاربعة الاخيرة لم تطبع اذ لم نرها وكان هو

المحرر للمجلة السلفية التي صدرت في آخر أيام حياته بمصر وكان يودعها نبذاً من مقتطفاته العلمية ومن كتاباته (مفكراته) وكانت تلك المجلة تنوه بكتاباته وقد وعدت بطبعها فيما أتذكر ، وله كتاب « تقويم المجلة السلفية » وان لم يصدر باسمه

علمه وعمله

لم يعتمد الشيخ وصف نفسه بعلم من العلوم ولا تصدى لتدريس فن منها فلم يعلم له تلميذ عالم أخذ عنه العلم غاية ما عرف به انه كان ذا اطلاع على اسماء كثير من الكتب حتى قال بعضهم انه نسخة من كتاب كشف الظنون او الفهرست وانعوان لم يعص ما أحصى كتاب من هذين ولكنه كان يعرف مواضع كثير من الكتب وقيد كثيرا مما يجب نشره ويجب طبعه ولكنه كان يبخل على الوراقين بارشادهم اليها اذ يرى انهم لا يستحقون ما ينالونه من الربح بطبعها . وكانت له مزية فنية في صرف قلوب الكتبيين لارشده إليها مقابلة أي القرآن المكتوبة على بعض المساجد والاضرحة في دمشق ومصر وكتاب معرض الخطوط للاباء اليسوعيين وله العلم بالمراجع والطبعات وما نشر من مؤلفاته اذا دل على سعة اطلاع فانه لا يدل على تحرير وابداع ولا على تفقه في العلم أو تمكن منه

وأما عمله فانه كان قد تولى التعليم في المدرسة الظاهرية ثم عين مفتشا للمدارس الابتدائية العثمانية في سورية فكان فيها مثالا للنشاط والذكاء والنصيحة

ومن عمله انه سعى لدى مدحت باشا الوزير العثماني الاداري الشهير عند ما كان واليا على سورية باصدار امره بجمع الكتب العلمية المخطوطة المبعثرة في المدارس العلمية والمساجد بدمشق فكانت مكتبة مفيدة وجمع من البيوت ما أمكن جمعه وجعل في قبة ضريح الملك الظاهر وجعل لها قوام وخدمة ونظام مختصر ، وفي أيام عبد الرؤف باشا والي سورية استحصل على طائفة من الكتب كانت في دور أناس من أعيان دمشق أوجبها لها المكتبة الظاهرية . ثم جعل مفتشا على دور الكتب في سورية وفلسطين فقام بذلك أحسن قيام

ومن مساعيه تأسيس المكتبة الخالدية في القدس الشريف ، وقد عين في آخر أيامه عضوا في المجمع العلمي الذي يرأسه محمد كرد علي في دمشق وتأخر المكتبة الظاهرية . وكانت الحكومة عزمت على درس قبر الامام ابن تيمية لوقوعه في حديقة خارج مدينة دمشق فأهاج الرأي العام ضد ذلك وبقي قبر الامام محفوظا بسعيه وعنايته وأظن ان هذه الحادثة وقعت في أيام مدحت باشا